دلالة الاستفهام بالهمزة في إلياذة الجزائر للشاعر مفدي زكرياء

تاريخ استلام المقال: 2016/11/17 تاريخ قبول المقال للنشر: 2017/02/23

أ.فتيحـة بـاريك

جامعة أحمد دراية أدرار –الجزائر

البريد الالكتروني: fatbar2009@gmail.com

الملخص:

اعتمدت النصوص الأدبية على استعمال الظواهر اللغوية لأغراض تعبيرية خاصة، وقد عد الاستفهام ظاهرة من هذه الظواهر اللغوية، إذ استعمله الأدباء في نصوصهم الشعرية والنثرية فأبدعوا في تبليغ رسالتهم. ومفدي زكرياء في إلياذته كان واحدًا من الشعراء الذين وظفوا الاستفهام لغاية تبليغية وخطابية محددة، فالمطلع على أدوات الاستفهام في نصوصه الشعرية يجد أنها تكثر، فتتباين وتختلف من تركيب إلى آخر، ولأن الاستفهام بالهمزة كان أكثرها استعمالًا وأبلغها دلالة، رأينا أن نعالج في موضوعنا هذا، الاستفهام بالهمزة عند مفدي زكرياء لمعرفة أساس تصدرها في الاستعمال، ثم لبيان دلالتها وتحديد كيفية تأثيرها على نفسية المستعمر، وإثارتها لمشاعر المناضل الجزائري.

Abstract **:**

The literary text swere focused on the use of the languauge phenomena for a special expressive purposes as well as the interrogation wasconsidered as one of these languagephenomena.Thereaderwhoreads a sentence. Phrase or wordwhichasks a question in hispoetictextsdetectsthattheyincrease and differfrom one synthesis to another and because hamza interrogation was more and more in use and more rhetorical indication. Wedecided to write about the hamza interrogation atmofdizakaria to know its top principal in use. As well as to show its indication and limitits influence upon the psyche of the colonist and itsthrilltowards the impression of the algerianstrugglers.

المقدمة:

لقد كانت ثورة نوفمبر 1954م، ولا تزال الحدث العظيم الذي غير مجرى حياة الجزائريين، ولعظمة حدثه، وعمق تأثيره في النفوس، نجد أن كل مناحي الحياة قد تجاوبت معه، ومن بينها فن الشعر، هذا الذي تغنى ببطولات وأمجاد الشعب الجزائري أيام الثورة التحريرية.

ولأن مفدي زكرياء (1908م-1977م)[1] شاعرا فذا، فقد أدلى بدلوه في كتابة التاريخ الوطني بأسلوب جميل، وبتراكيب لغوية بديعة، فكانت كتاباته الشعرية تلخيصا لمسيرة الكفاح والنضال، ولعل الإلياذة التي خطّ حروفها من ذهب أكبر مثل على العمل الأدبي الممتاز.

ولأن الشعراء قديما وحديثا اهتموا بالتراكيب اللغوية، رأينا أن ندرس في موضوعنا هذا دلالة الاستفهام بالهمزة في إلياذة الجزائر للشاعر مفدي زكرياء، والذي حدانا إلى اختيار هذا الجانب بالتحديد هو أن أسلوب الاستفهام عموما كان من الأساليب التعبيرية الشائعة في الشعر العربي، فكثير من القصائد التي استهلت به موضوعها.

ولعل استهلال الشعراء بالاستفهام راجع إلى أن التعبير بالاستفهام عن المعاني البلاغية التي يخرج إليها، أبلغ منه بالإخبار المباشر، وهو ما أدركه شاعرنا الفذ مفدي زكريا، فجعله يعبر عن واقع الثورة التحريرية الجزائرية وعن بطولاتها الأسطورية، وأحداثها التاريخية المجيدة بأساليب لغوية، تساعده على التعبير عن التجربة الثورية، وبألفاظ وجمل تثير الإحساس بالغيرة على الوطن، وتشحن النفوس بالنضال، وتعينهم على الشعور بالاعتزاز والفخر بالوطن، وقد تناسبت الصيغة الاستفهامية مع ذلك فأدت دورها في عملية التواصل بين الجماعات وظيفتها في التعبير عن الأغراض.

1- مفهوم الاستفهام:

1-1 لغة:

الاستفهام هو:" **الفهم أي معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء عقلته وعرفته، وفهّمت فلان، وأفهمته، وتفهّم الكلام فهمه شيئا بعد شيء، ورجل فَهِم سريع الفهم،**

[1]- مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ساهم في حركة الشعر الجزائري الحديث، وفي مسيرة التاريخ الشعري الجزائري عموما، كانت حياته ممتدة زمنيا بين 1908 م/ 1977م، ومكانيا بين بني يزقن- غرداية مسقط رأسه، فتونس، فالجزائر العاصمة، ثم المشرق العربي. ينظر: محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1، 1985م، 666 – 667.

واستفهمه سأله أن يُفهِّمه، وقد استفهمني الشيء، فأفهمته، وفهّمته تفهيماً"[1] ويقال أيضا: " **فهِمت الشيء أفهَمه بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع فهْما وفهَما وهي أفصح، وفهَامَة وفهامِية علِمَه وعرَفَه بالقلب**"[2].

2-1 اصطلاحا:

إن موضوع الاستفهام من المباحث اللغوية التي تناولها النحاة والبلاغيون على حد سواء، فقد أدلى كل منهم بدلوه في بيان الاستفهام وعرض له حسب تخصصه، وقدجعلهمعملهم هذا أن يجمعوا على اصطلاحه: " بطلب حصول صورة الشيء في الذهن"[3] ويقال فيه: " طلب العلم بشيء لم يكن معلوما للسائل من قبل"[4]، هذا ونجد أن بعض العلماء قد اصطلح عليه اسم الاستخبار، ومنهم ابن فارس الذي يقول: " الاستخبار طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام"[5] وقولهم: " الاستفهام طلب الفهم وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به وبعضهم يفرق بين الاستخبار والاستفهام"[6].

وفي أمر العلاقة بين الاستخبار والاستفهام نجد ابن فارس يقول: " أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق، قالوا: وذلك أن أولى الحالين الاستخبار، لأنك تستخبر فتجاب بشيء، فربما فهمته، وربما لم تفهمه، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهِم، تقول: أفهمني ما قلته لي، قالوا: والدليل على ذلك أن البارئ جل ثناؤه يوصف بالخبر ولا يوصف بالفهم."[7]

فالاستفهام هو أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وأهمية، ومن مدلوله اللغوي والاصطلاحي نعرف أن المراد به طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، ويكون الاستفهام بحروف وأسماء معينة، لكل منها معنى خاصا، إضافة إلى المعنى الذي وضعت له في الأصل.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين، دار الحديث- القاهرة، 1434هـ/2013م، 183/07.مادة (فهم)

[2]- الفيروزبادي: القاموس المحيط، تو: يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر-بيروت- لبنان، 1428-1429هـ/ 2008م، 1033.مادة (فهم)

[3]- الشريف الجرجاني: التعريفات، تع: محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن- عابدين- القاهرة، 25.

[4]- السيد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تد: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، ط02، 1421هـ/2000م،78.

[5]- ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف- بيروت- لبنان، ط01، 1414هـ/ 1993م، 186.

[6]- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني، دار الفرقان- العراق، ط04، 1417هـ/ 1997م، 168.

[7]- ابن فارس: الصاحبي، 186.

وتلك الحروف والأسماء تتبين في قولهم: " الاستفهام كلماتموضوعة، وهي الهمزة، أم، هل، من، أي، كم، كيف، أين، أنّى، متى، أيّان، بفتح الهمزة وكسرها، وهذه اللغة أعني كسر همزتها تقوي أيان، إن يكون أصلها أي وأن، وهذه الكلمات ثلاثة أنواع أحدهما يختص بطلب حصول التصور، وثانيهما حصول التصديق، وثالثهما لا يختص"[1]

2- أهمية أسلوب الاستفهام:

لقد كشفت أبحاث علماء العربية عما في اللغة من ثراء على مستوى التراكيب والدلالات، ولأن التركيب المعين من تراكيب العربية قد يخرج إلى دلالة أخرى تصب في تركيب آخر، كدلالة بعض تراكيب الاستفهام على التعجب أو النفي...[2]، فإننا نجد الاستفهام يحظى بأهمية بالغة في اللغة العربية، وتكمن أهميته في الدور الذي يؤديه في العملية التواصلية، والوظيفية التبليغية، فإذا كان التواصل لا يتم إلا استنادا إلى تخاطب، فإن الاستفهام بتراكيبه المختلفة وأدواته المتعددة قد أبرز هذا التخاطب، ذاك أنه يجسد دورة التخاطب وهو يتوفر على مرسل ومرسل إليه ورسالة، ولما كان الاستفهام خطابا تنوعت أغراضه[3]، وقد أشار ابن هشام إلى خروج أدوات الاستفهام الحقيقي إلى ثمانية معان، منها: التقرير، والتسوية، والتهكم، والإنكار الإبطالي، والإنكار التوبيخي، والأمر، والتعجب، والاستبطاء[4].

فكثير من القصائد العربية استهلت موضوعها بالاستفهام، ولعل استهلالها بتراكيب الاستفهام عموما، يرجع أساسا إلى أن التعبير بالاستفهام عن المعاني أبلغ منه عن التعبير بالإخبار المباشر، وهو ما أدركه شاعرنا الفذ مفدي زكرياء، فقد عبر عن واقع الثورة التحريرية، وعن بطولاتها الأسطورية، وأحداثها التاريخية المجيدة بأساليب لغوية تساعده على تصوير التجربة الثورية، وبألفاظ وجمل بليغة تثير الإحساس بالغيرة على الوطن، وتشحن النفوس، وتوقظ الهمم، وتعينها على الشعور بالفخر والاعتزاز بالوطن، ولقد تناسبت الأساليب الاستفهامية مع هذه الدعوة النضالية، فأدت بذلك وظيفتها التعبيرية، كيف لا وأن الأسلوب يكتسب نجاعته بتناسبه مع الموضوع، وقد

---

[1]- السكاكي: مفتاح العلوم، تع: علي نعيم زرزور، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط02، 1987م، 308.

[2]- ينظر: هادي نهر: التراكيب اللغوية، دار اليازوري العلمية- عمان- الأردن، 2004م، 09.

[3]- ينظر: ناغش عيدة: أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين (دراسة نحوية بلاغية تداولية)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر- جامعة مولود معمري- تيزي وزو، 06-05-2012م، 23-24.

[4]- ينظر ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، 1411هـ/1991م، 23/01.

جاء هذا الكلام واضحا في قولهم: " أما الأسلوب فمن أهم مزاياه ما يمكن أن يسمى باسم الوضوح ويتبين ذلك من أن الكلام إذا لم يجعل المعنى واضحا فإنه لا يؤدي وظيفته الخاصة "[1]

فالأسلوب الناجع هو الذي يتجلى فيه صاحبه بصورة حيوية، أي أن يكون معبرا ويقظا وديناميا ومدهشا وحارا[2]، وهو ما ظهر عليه مفدي زكرياء في الإلياذة، إذ كان صوته يجلجل بصخب عنيف، ونبرة حادة، تصاحب مشاعره القوية الجياشة، فأعطى نصه الشعري مجموعة من الصور التي تترجم على وقع الجمل في تراكيب إنشائية يتقدمها الاستفهام بقوة الظهور وحسن الدلالة.

3- الاستفهام بالهمزة:

تعد الهمزة أصل أدوات الاستفهام عند أكثر النحويين والبلاغيين، وهذا ما يعلمنا به كبير النحويين في قوله: " فأما الألف فتقديم الاسم فيها قبل الفعل جائز، كما جاز ذلك في هلا، وذلك لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره، ... وقد سميت أم الباب، وأم الاستفهام، لأنها أصل أدوات الاستفهام"[3]، فالهمزة أعم من جميع أدوات الاستفهام، لانفرادها بخصائص غير موجودة في باقي الأدوات، فهي حرف مشترك يدخل على الأسماء والأفعال، وهو ما لم يخفَ عن سيبويه إذ يقول: " أدوات الاستفهام يقبح دخولها على الاسم إذا كان بعده فعل، إلا في الضرورة، ولكن الهمزة يصح بدون قبح أن تدخل على الاسم وإن كان بعد فعل"[4] ثم يقول أيضا: " اعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم، إذا كان الفعل بعد الاسم، لو قلت: هل زيد قائم؟ وأين زيد ضربته؟ لم يجز إلا في الشعر، فإذا جاء في الشعر نصبته، إلا الألف فإنه يجوز فيها الرفع والنصب، لأن الألف قد يُبتدأ بعدها الاسم"[5]، فالهمزة ولأصالتها استأثرت بأمور منها تمام التصدير بتقديمها على الفاء والواو وثم، نحو﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6] و ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾[1] و ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾[2]، وكان الأصل في

---

[1]- أرسطو: فن الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، 1986م، 196.

[2]ينظر محمد مشبال: البلاغة والخطاب، دار الأمان- الرباط، منشورات الاختلاف- العاصمة- الجزائر، منشورات ضفاف- بيروت، ط01، 1435هـ/2014م، 107.

[3]- سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، 01/ 99-100.

[4]- سيبويه: نفسه، 01/ 99.

[5]- سيبويه: الكتاب، 01/ 101.

[6]- سورة البقرة، الآية 44.

ذلك تقديم حرف العطف على الهمزة، لأنها من الجملة المعطوفة لكن راعوا أصالتها في استحقاق التصدير عن سائر أدوات الاستفهام.[3]

وإذا ما أبحرنا أكثر في خصائص الهمزة نجد أن الجرجاني قد بذل عناية واضحة في دراسته لأسلوب الاستفهام، فتوصل بذلك إلى الخاصية البلاغية والفنية في الاستفهام بالهمزة، إذ يقول: " ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت (أفعلت؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وإذا قلت (أأنت فعلت؟) فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه"[4]

فالمعاني التي يفيدها الاستفهام عموما هي معان بلاغية غير متناهية، ذاك أن السياق والقرائن الحالية الأخرى تتحكم في دلالة الاستفهام وفي دلالة التراكيب اللغوية المماثلة، فتجعل الأغراض البلاغية المستفادة منه متجددة بتجدد السياق والمقام والمقاصد " ...ثم هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام."[5]

وإن همزة الاستفهام تأتي لمعان مجازية أخرى غير المعنى الذي هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فالاستفهام الحقيقي يجب أن يصدر عن شاكٍ مصدّقٍ بإمكان الإعلام، لأن غير الشاكّ إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدّق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام[6]، وهذا لا ينطبق في مجمله على القرآن الكريم، لأن الله سبحانه وتعالى منفي عنه ذلك، فهو عالم ومستغن عن طلب الإفهام، أما في الشعر فليس من شأن الشاعر طلب الفهم عن شيء يجهله، وإنما هو يستعمل أسلوب الاستفهام حتى يجسد معاناته وتجاربه الشعورية بهذا الاستفهام، ومنه يكون هذا الأسلوب مجرد وسيلة من وسائل توسيع المعنى وإثرائه، بل وتنويع الأفكار والصور والمواقف، وعليه قيل أن " الاستفهام غالباً ما يتصل بموقف ينزع صاحبه إلى تحقيق كشف أو يتصوّر أنه يتوصل من خلاله إلى كشف يشرك المتلقي فيه وينتزع منه إقراره

---

[1]-سورة الروم، الآية 09.

[2]- سورة يونس، الآية 51.

[3]- ينظر المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط01، 1413هـ/ 1992م، 30-31.

[4]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تخ: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، 1422هـ/2002م، 154.

[5]- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط01، 1424هـ/ 2003م، 112/01.

[6]- ينظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، 1426هـ/2006م، 326/02-327.

ضمناً، ولهذا لا يطلب منه جواباً، وكأننا بالمستفهم قد طلب وصادر على المطلوب في آن واحد"[1].

4- معاني ودلالات الاستفهام بالهمزة في الإلياذة:

لقد ورد الاستفهام في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء بصور متعددة، وأدوات مختلفة، غير أن لهمزة الاستفهام استعمالا وتصرفا أوسع، مما جعلها أصل أدوات الاستفهام وأم بابها، ولأن للاستفهام بها أسلوبا متميزا في الغالب، سنحاول في هذا المقام أن نبين دلالتها ومعانيها على النحو الآتي:

4-1 التقرير:

يذهب كثير من النحاة إلى أن الهمزة تستعمل في معنى التقرير، إذ يقول سيبويه:" ومما يدل على أن (ألف) الاستفهام ليست بمنزلة (هل) أنك تقول للرجل: (أطرباً؟)، وأنت تعلم أنه قد طرب، لتوبخه وتقرره، ولا تقول هذا بعد (هل)" [2]

وقد وردت هذه الهمزة التي بمعنى التقرير في قوله:[3]

أَفِي رُفْرُفِ الخُلْدِ قدْ وَجَدُوا تِلمْسَانَ فَاخْتَطَفُوهَا اخْتِطَافًا؟؟

فالهمزة وهي تتصدر البيت تفيد إثبات الحكم وتقريره، خاصة أن هذا البيت هو آخر ما ورد في القصيدة، وهو الذيبني عليه المعنى العام لها، فبعد أن ذكر جملةمن الانجازات والأعمال التي يشهد التاريخ بعظمتها، قائلاً:

تلمْسَان مَهْما أَطلتّا الطّوَافَا إِلَيكِ تلمْسَان نَنْهِي المطَافَا
يَغْمُرَسَن[4] الشّهْمَ ضَاقَ اصْطِباراً وغَالَبَ خمْسينَ عَاماً عِجَافَا
وأَصْلَى بَنِي حَفْص حَرْباً عَواناً وَمَا اسْطَاعَبَابْن مَرِيْن اعْترافَا
فَكَانَت تلمْسَان دَارَ سَلامٍ وأَمْرُ الجَزَائِر فِيهَا ائْتلاَفَا

---

[1] حسني عبد الجليل يوسف: أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، التركيب والموقف والدلالة، دراسة نحوية وبلاغية لأساليب الاستفهام في ضوء الموقف الشعري، دار الثقافة- القاهرة، 02.

[2] - سيبويه: الكتاب، 126/03.

[3] - مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، تح: مولود قاسم نايت قاسم، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط02، 1987م، 51.

[4] أبو يحي يغمرسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن العبد الواد، أول من استقلّ بتلمسان من سلاطين بني عبد واد، بويع يوم مقتل أخيه زيدان بن زيان، تزيّا بزي الإمارة ومحا آثار الدولة الموحدية، فدام حكمه 44 سنة، عاش في الفترة الممتدة بين 603هـ- 681هـ/ 1206م- 1283م. ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- لبنان، ط02، 1400هـ- 1980م، 354-355.

فأَكْرَمَ بِمشوَرِها الوَطَنـيّ وزيّان يَحسِمُ فيهَا الخِـلاَفَا
ويَدْفَعُ خَطو بَني عَبْد وَاد فَتَغْزُو الحيَاة ثِقالاً خِفَـافاً
وَيَسْكَر هَذَا الوَريط الدُّنَا فَتَعصر فِيهِ النّجُوم سلافَا
وَيَكْتُبُ يحْي بن خَلدُون سفْراً فَيَهْتك فِي النيرّات السّجافَا
وَتَنْشـقّ مَنْجَانة بالعذَارَى فيَلْتاع مُوسَى[1] ويَأْبى انصِرافَا

صار يفتخر بتلمسان وبمعالمها وصروحها لدرجة أنه يجعلها قطعة من الجنة، وما كانت لأن تكون كذلك لولا السنين الطويلة التي عكف فيها حكّامها بمعونة شبعهمعلى العمل الجاد، والصبر على الشدائد نهوضا ببلدهم، وحفاظا عليها من يد الأعداء، وها هو التاريخ يعيد نفسه مع فرنسا، عندما أرادت أن تستحوذ على البلد وأن تنسب فضلها إليها، وهو ما نفهمه من استفهام الشاعر الذي يدل دلالة واضحة على تقرير الحكم باختطافها، وقد بعُد ذلك عنه لأن التاريخ يشهد على دور رجالها، وعظمة صنيعهم من فترة إلى أخرى.

وهو لم يكتف بذلك وإنما كان في الوقت ذاته يمجد أمته التي جاءت بثورة نوفمبر الخالدة، هذه الثورة التي كانت لها أبعادا متكاملة، حيث لم تعمل فقط على تحرير الأرض، بل امتد أثرها وتأثيرها لتحرير الدين واللغة فلم يمنعها هول الحرب التي تخوضها الجزائر،بل حرصت على أن تمتد جذورها في الرقي والحضارة، وهي تحافظ على قوميتها اللغوية والدينية والتاريخية، وعلى كينونتها عموماً، لاسيما وأن في الحفاظ على ذلك تطلّع إلى قيام دولة عصرية قوية تتمتع بسمعة طيبة.

وكذلك في قوله[2]:

دبورمُون هَلْ دَام حِقْدُ الصّلِيب؟ أَنَال قِرِيقـوَار مِنْ بَأْسِنَا؟

ولأن المستعمر الفرنسي يحاول تجاهل الجزائريين، ويستهين بهم، وبتقريرهم لمصيرهم، حين أراد البابا (قريقوار)، وبقرار رسمي من فرنسا أن يحول المسجد إلى كنيسة، والذي يدل على أن غايته تحويل الجزائريين معه إلى مسيحيين، وهو ما استنكره الشاعر ونفي أن يكون، ولذلك جاء

[1] هو أبو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمرسن بن زيان مجدد الدولة الزيانية في تلمسان، وثالث ملوكها في دورها الثاني، انتظمت الدولة في أيامه واستقرت، وضمن لرعيته الأمن والرخاء والازدهار. ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، 125-126.

[2] – مفدي زكرياء: نفسه، 91.

غرض البيت لإفادة الإنكار، وهو نفي تَحَقّق رغبة البابا ليظهر من ذلك تمسك الجزائريين بعقيدتهم وبدينهم الإسلام، ويُظهر عدم الاستسلام للعدو الغاشم، فأظهروا البسالة والشجاعة بوقوفهم في وجه العدو.

وهكذا يكون الشاعر قد كشف مخططات المستدمر الذي سخّر كل إمكانياته لغزو الجزائر، وبعدما فشلت محاولاته الاستيطانية، صار يسعى إلى الغزو الفكري، وذلك بتحويل جامع (كتشاوة)[1] إلى كنيسة، و من ثمة يتحقق مرادهم في طمس الشخصية الجزائرية، ولكن هيهات لهم، وهو ما جعل الشاعر يعزز استنكاره بفخر، واعتزاز بشعبه وبأصالته، وانتمائه إلى العروبة والإسلام.

أما في قوله:

أَلَيْسَ امتِزَاج دِمَانَا الغَوا نِي شَهِيدًا عَلَى وحْدَة العُنْصُر؟
أَلَيْست جرَاحَاتنا الدّاميَات وآمَالُنَا فَلَكَ المحوَر؟[2]

فاستعمل الشاعر(أليس) وهو أسلوب إنشائي طلبي استفهامي، خرج إلى النفي، والتقرير، أما عن اختياره التعبير بلفظ الاستفهام هذا فيكون لإنكار النفي في (ليس)، وذلك للمبالغة في الإثبات، والمراد تقرير ذلك في النفوس، خاصة إذا علمنا أن " حقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكاري والإنكار نفي، وقد دخل على النفي، ونفي النفي إثبات، والذي يقرر عندك أن معنى التقرير الإثبات...فإذا أدخلت على (ليس) ألف الاستفهام كانت تقريرا ودخلها معنى الإيجاب"[3].

والمراد في البيتين الإثبات، أي أن الشاعر يثبت ويؤكد على تمسك شعبه بالثورة، ويفتخر بشعبه الموحد في مواجهة المستعمر الفرنسي، وهو يقف وقفة الرجل الواحد، الذي يدافع عن وطنه بكل اعتزاز، وإلى آخر رمق فيه، وذلك إيمانا منه وثقة بالنصر المبين، فجاءت الهمزة وتلتها أداة النفي، وحصل التقرير إثباتا للمعنى.

و كذلك في قوله:[4]

---

[1]- أعلى مبنى في العاصمة، وضع عليه ديورمون بنفسه صليبا كبيرا على رأس جامع كتشاوة.

[2]- مفدي زكرياء: الإلياذة، 86.

[3]- الزركشي، البرهان، 333/02.

[4]- مفدي زكرياء: نفسه، 30.

أَيَخْفِي هَـوَاه وَفِي رَاحيته تَمُوجُ المَحَاسن مِلءَ الرّحَاب؟

نرى أن دلالة الاستفهام التقرير(الإثبات)، فالشاعر يتغنى بجمال بلاده، هذا الجمال الذي لا تخفى محاسنه ومناظره الخلابة عن الأعين، لأنها تكشف عن نفسها وهي تتموج بمحاسن تملأ الأكوان، ومن هذه المناظر الجميلة حمام ريغة، الذي يتميز بروعة مناظره، وهو من الحمامات المعدنية التي تستهوي الباحثين عن المتعة الطبيعية، والراحة النفسية.

2-4 الإنكـار:

إن الفرق بين الاستفهام الإنكاري والاستفهام التقريري، هو أن " الاستفهام التقريري يفيد تثبيت الأمر، وتحقيقه، أو إقرار المخاطب، واعترافه كما مر بنا، أما الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرر المخاطب في شيء، وإنما تستنكر عليه وتستهجن منه ما حدث في الماضي أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل"[1].

والإنكار" انفعال ينتج عن طريق معرفة المخاطِب أن المتلقي خالف جادة الصواب مع وجود البراهين الواضحة، والأدلة المانعة، فالإنكار انفعال عن المتكلم تجاه المتلقي لمحاولة ثنيه عن خطئه"[2] وهو نوعان:

2-1 إنكار إبطال وتكذيب:

و" هو الذي يؤول معناه إلى النفي، لأنه إنكار لوجود النفي وتلك هي حقيقة النفي"[3] وقد ورد الإنكار في الديوان في عدة تراكيب استفهامية، ومنها هذا الأسلوب الاستفهامي المرتبط بمعنى الإنكار الدال على التكذيب، كما في قوله:

أَتَنْسى الجَـزَائر حَوَاءهَا وَأَمْجـادها لَـمْ تَزَل قَائِمَة؟[4]

أَيَنْـسى ابنُ شهْرة أَحْرَارنَا تَلْقـف رَايـته بِاليمِين؟[5]

---

[1]-فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، 193.

[2]- محمد أحمد أبو عمود: البلاغة الأسلوبية تصوير الموت في القرآن الكريم أنموذجا، تق: عبد الرحيم محمود زلطا، مكتبة الآداب- القاهرة- مصر، ط01، 2009م، 45.

[3]- حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة مدخل إلى تحويل الخطاب النبوي، دار الآفاق- القاهرة- مصر، ط04، 1428هـ/2007م، 132.

[4]- مفدي زكرياء: الإلياذة، 57.

[5]- مفدي زكرياء: نفسه، 76.

إذ يتسم التركيب في هذين البيتين بتكرار همزة الاستفهام، والفعل المضارع (ينسى)، والتكرار كما نرى هو وظيفة إيقاعية، فالكلمة المتكررة عندما تأتي في مطلع كل بيت تحدث نغما صوتيا، وتكشف عن حالة نفسية مشحونة بالأحاسيس والمشاعر كما هو الحال مع شاعرنا الذي لا يكاد أن يشير لمرحلة تاريخية في الثورة الجزائرية، حتى تستحضره مرحلة أخرىتماثلها من النضال والكفاح المتواصل من أجل الحرية، وكأن الشاعر بتكراره يقصد إلى تنبيه الحس، وتحفيزه لمعرفة ما إن كان دم الجزائريين دليل كافي على وحدة الشعب وتضامنه، وكون هذه الأداة إثبات، وتأكيد منه على أن المراحل النضالية المتتالية دليلاً آخر على التمسك بقضية وطنهم، وهدر دمهم في سبيله،فالاستفهام هنا يشمل تساؤلا إنكاريا، إذ الشاعر ينكر، وينفي أن ينسى الشعب الجزائري أبجاد وبطولات شعبه رجالا ونساء، فكيف بمَن هُنّ مِن مثيلات فاطمة نسومر التي تحدّت كبار الجنرالات الفرنسيين، أو أمثال ابن شهرة، وغيره من أولئك الذين كتبوا تاريخ الجزائر بدمائهم التي تشبعت بها الأرض.

فأسماء هؤلاء الأبطال والبطلات مازالت وستزال راسخة في قلب كل جزائري، وعليه كان الإنكار هنا إبطالي على من ادعى نسيان الجزائر لأبطالها، وهو يؤكد لهم تمسكها بهم، وذلك من خلال تضمن الإنكار معنى الافتخار، والتعظيم والإشادة بأبطال الثورة الجزائرية.

وكذلك هو في قوله:[1]

إذَا الشّعْر خلّد أسد الرّهان أَيَنْسى مُغَامَرة الحَيَوان؟
أَيَنْسَى البِغَالَ؟ أَيَنْسَى الحَمِير؟ وَهَلْ بِبُطُولاَتِهَا يُسْتَهَان؟

يتسم التركيب في البيتين أيضا بتكرار همزة الاستفهام، والفعل المضارع (ينسى)، ثلاث مرات: – أينسى مغامرة الحيوان؟ – أينسى البغال؟ – أينسى الحمير؟

والغاية من هذا التكرار التأكيد، أي تأكيد إثبات مشاركة الحيوانات في الثورة وذكر منها البغال والحمير، حينما استغلهم رجال الثورة في نقل مؤوناتهم إلى الجبال، وهنا يحاول أن يبدي عظمة الثورة الجزائرية، ويبرز الدور الفعال لجميع ما على أرضها من إنسان، أو حيوان في إنجاحها وإعلاء صوت الحق على ربوع أرضيها، كأن بثورة نوفمبر المجيدة تعظم بتظافر الجهود، إذ كان التحدي لا يكمن فقط في الشعب الجزائري بل يتعداه إلى الحيوانات وما قدمته من عون

[1]– مفدي زكرياء: الإلياذة، 81.

للمجاهدين، فقد كان لها أيضا الدور الكبير في نجاح الثورة الجزائرية، كيف لا وثورتنا المجيدة ثورة إنسان وحيوان، كما يشير في آخر قصيدته، إذ يقول:

فَلَولاَك يَا حَيَوان الفِـدَا لَمَا أَحْرَز الشّعْب كَسبَ الرّهَان

بِذِكْراك تَعْتَز إِلْيَاذَتِي فَأَزْكَى التّحيَات، يَا حَيَوان

2-2 انكار توبيخ:

وهو الذي" يقتضي أن ما بعده واقع، وأن فاعله ملوم"[1]، ومن هذا الإنكار الدال على التوبيخ، أي الإنكار التوبيخي، قوله:[2]

أَيُطْرِبُكم فِي الحَيّنَاعق وَتَسْتَنْكِرُونَأَذَانَ الصّلاَة؟

فالشاعر يوبخ بعض قومه من أبناء الجزائر على ما صدر منهم، وراح يلومهم على تلك الأعمال الشنيعة التي أَنْسَتْهم قضيتهم الثورية، وشغلتهم عنها، فكانوا ينفخون المزامير ويقرعون الطبول، ويقيمون الولائم التي يسود فيها البذخ والطرب الماجن،، وهم في ذلك مستعجلون على مشاركة المستعمرين كفرهم والاحتفال معهم في البعد عن الدين الحنيف، بينما هم في الوقت نفسه يتثاقلون عن آداء الفرائض، فحين يسمعون آذان الصلاة لا يلبونه، وينزعجون له وهو فعل مذموم، استنكره عليهم وذم تصرفهم فيه، فكيف لا تقلق راحتهم الضوضاء، والصخب المصاحب للعربيد، بينما ينزعجون لمكبرات الصوت الناطقة بالحق في المآذن،وقد فضّل إيصال عتابه بأسلوب الاستفهام لأبناء بلده تخفيفا لحدة العتاب، واستثارة لمشاعرهم الدفينة تحت إغراءات المستعمر، وإيقاظا لضمائرهم التي أماتتها حتى تنسيهم مطالبهم الحقيقية.

ومن هنا كان الاستفهام حاملا دلالة الإنكار التوبيخي الموجه إلى من أوقع الشيء وقام به من قومه، فالشاعر بتركيبه الاستفهامي يحمل موقف المنكر الموبِّخ لتصرفات بعض أفراد مجتمعه، والتي تشوه الشخصية الجزائرية الإسلامية، ألا وهي تفضيل الطرب والغناء، على الأذان والصلاة، ففحوى هذا الفعل الكلامي المتضمن في الاستفهام يهدف إلى تحقيق تأثير في المخاطَب، أي أنّ

[1]- محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، مؤسسة كنوز الحكمة- الجزائر، 2011م، 39.

[2]- مفدي زكرياء: الإلياذة، 112.

غرضه الإنجازي وغايته التأثيرية تخص ردود فعل المتلقي وإنجازه لشيء ما بعد حدوث آثار على مشاعره وأفكاره وتصرفاته كذلك[1].

4-3 التعجب:

يذكر النحاة أن الاستفهام يرد للتعجب، وذلك " لأن أصل الاستفهام الخبر، والتعجب ضرب من الخبر، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام أعاده إلى أصله من الخبرية"[2]

فالتعجب هو أحد أنواع الاستفهام الإخباري، وهو الذي يكون الخبر فيه معنىً نهائيا، يُتوصل إليه عن طريق التعجب الذي " يعتبر خبرا ويدل على أنه يجوز لك أن تقول فيه صدق أو كذب"[3]، كما أنه يعتبر نوعا مختلفا عن سائر الأخبار لكونه" قد يلزم لفظا واحدا، ولم يصرف، ليدل على التعجب، ولولا ذلك لكان كسائر الأخبار"[4].

فالمراد من هذا هو أن التعجب شبيه بسائر الأخبار من حيث الدلالة، غير أنه يختلف عن سائر الأخبار في لزوم فعله لفظا واحدا، وشكلا واحدا لا يتغير، ولا يتصرف فيه الشيء، ومن الأمثلة التي ورد فيها التعجب في الإلياذة، قول الشاعر:[5]

أَفِي رُؤْيَة الله فِكرك حَائِر وَتذْهل عَنْ وَجْهِهِ فِي الجَزَائِر ؟

إذ أن التركيب في هذا البيت ليس استفهاما حقيقيا بل هو استفهام مجازي، فتقديم الخبر في هذا النمط التركيبي، أساسه لفت انتباه المتلقي إلى أهمية الخبر، وفائدته التي تكمن في تجلي قدرة الله تعالى التي تحير العقول المتأملة فيها، وتزداد حيرة بل ذهولا في هذا التأمل لما يكون متعلقا بالجزائر، فالجزائر قطعة أثرية تتجلى القدرة الإلهية فيها.

ولهذا الشاعر في هذا البيت لا يتساءل لغرض الإجابة، بل على العكس، فقد وظف الاستفهام بغرض الإجابة عن سؤال هذا الشخص، فكان جوابه يحمل دلالة التعجب التي بمعنى النفي.

وفي قوله:[1]

---

[1] مسعود صحراوي: التداولية عند علماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة- بيروت، 40-41.

[2] - ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان، 269/03.

[3] - خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، المؤسسة العربية للتوزيع- تونس، ط 01، 2001م، 279.

[4] - خالد ميلاد: نفسه، 279.

[5] - مفدي زكرياء: الإلياذة، 23.

أَنَنْسَى ثَلاَثة أيّام نَحْس؟ وَسوستَال يَندبُ مَعَ النّائِحِين؟

يتضمن الاستفهام في هذا التركيب التعجب الذي تشرب معنى النفي، فالشاعر ينفي عدم نسيان الشعب الجزائري تلك المعركة التي حقق فيها فوزا باهرا على الاستعمار الغاشم وكبده خسائر فادحة، في حين يتعجب من المستدمر الفرنسي في إمكانية نسيانه لهذه المعركة.

الخاتمة:

لقد جعل مفدي زكرياء أسلوب الاستفهام وسيلة ناجعة وفعالة في ذكر الكثير من الأخبار التي تهم الأمة العربية عموما، و شعبه خصوصا، ولذلك كان استعماله لهمزة الاستفهام، وعلى غرار باقي أدوات الاستفهام الأخرى كثيراً، فقد جاءت لمعان عدّة أكسبت شعره جمالاً وروعة، لا سيما وأنالاستفهامأسلوب من الأساليب اللغويةالطلبيةالتيتستقر في الأعماق، وترسخ في الأذهان، وتؤثر في المخاطب تأثيرا بالغًا،حتى أنها تجعل من المتلقي طرفًا فاعلاً في القضية المطروقة، والخبر المذكور، وذلك لأهمية الخبر لدى المتكلم والمخاطب معاً، فهو يعمل على لفت انتباه السامعين والتأثير في نفوسهم، فيندمجون معه ويستمعون إليه بقلوبهم، وهو أيضا يتجاوب مع هذه النفوس البشرية بأبعادها المختلفة، وبذلك يكون الاستفهام الوسيلة الطبيعة لتأدية الأغراض، والمقاصد المختلفة التي تحمل في طياتها الإثارة، وتحريك الوجدان، وإيقاظ الشعور إلى الهدف المرجو، وقد أظهرت النماذج الاستفهامية التي وقفنا عندها في هذا العمل أن :

–الاستفهام هو أكثر الأساليب الانشائية تداولاً في إلياذة الشاعر، وقد كان استعماله للهمزة على غرار باقي أدوات الاستفهام كثيرا، فكان لها في ذلك وقع خاص.

–الاستفهام بالهمزة كان له إيقاع موسيقي متميز، ووظيفة فنيّة ودلالية تداولية مهمة، كالنهوض بالهمم والتأكيد على التمسك بالأرض والشخصية الوطنية.

– خرج الشاعر بالاستفهام عن معناه المباشر إلى معاني، وأغراض أخرى غير مباشرة، منها التقرير، والإنكار، والتوبيخ، والتعجب...

المصادر والمراجع:

- القـرآن الكريم.

1- أحمد ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف- بيروت- لبنان، ط01، 1414هـ/ 1993م.

[1]- مفدي زكرياء: نفسه، 76.

2- أرسطو: فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، 1986م.

3- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، 1426هـ/2006م.

4- جلال الدين القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط01، 1424هـ/ 2003م.

5- جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين، دار الحديث- القاهرة، 1434هـ/2013م.

6- جمال الدين ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، 1411هـ/1991م.

7- حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة مدخل إلى تحويل الخطاب النبوي، دار الآفاق- القاهرة- مصر، ط04، 1428هـ/2007م.

8- الحسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط01، 1413هـ/ 1992م.

9- خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، المؤسسة العربية للتوزيع- تونس، ط 01، 2001م.

10- السيد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، ط02، 1421هـ/2000م.

11- الشريف الجرجاني: التعريفات، تعليق: محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن- عابدين- القاهرة.

12- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني، دار الفرقان- العراق، ط04، 1417هـ/ 1997م.

13- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- لبنان، ط02، 1400هـ- 1980م.

14- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، 1422هـ/2002م.

15- عثمان ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

16- عمرو بن عثمان سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة.

17- عيدة ناغش: أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين (دراسة نحوية بلاغية تداولية)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر- جامعة مولود معمري- تيزي وزو، 06-2012/05م.

18- مجد الدين الفيروزبادي: القاموس المحيط، توثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر-بيروت- لبنان، 1428-1429هـ/ 2008م.

19- محمد أحمد أبو عمود: البلاغة الأسلوبية تصوير الموت في القرآن الكريم أنموذجا، تقديم: عبد الرحيم محمود زلطا، مكتبة الآداب- القاهرة- مصر، ط01، 2009م.

20- محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، مؤسسة كنوز الحكمة- الجزائر، 2011م.

21- محمد مشبال: البلاغة والخطاب، دار الأمان- الرباط، منشورات الاختلاف- العاصمة- الجزائر، منشورات ضفاف- بيروت، ط01، 1435هـ/2014م.

22- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1، 1985م.

23- مسعود صحراوي: التداولية عند علماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة- بيروت.

24- مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، تحقيق: مولود قاسم نايت قاسم، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط02، 1987م.

25- هادي نهر: التراكيب اللغوية، دار اليازوري العلمية- عمان- الأردن، 2004م.

يوسف بن محمد السكاكي: مفتاح العلوم، تعليق: علي نعيم زرزور، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط02، 1987م.